غازي القصيبي .. المثير للجدل دائماً

مثير للجدل دائماً... هو غازي القصيبي، في غيابه كما في حضوره. لطالما كان الأديب والوزير السعودي «صانع» سجالات في السياسة والأدب والشعر والفكر... وحتى الدبلوماسية، هو الذي تبوأ منصب «سعادة السفير» مرتين: الأولى لدى البحرين عام 1984، والثانية لدى بريطانيا عام 1992.

القصيبي شاعر له نتاج في فن الرواية والقصة، مثل: (شقة الحرية)، و(دنسكو)، و(أبو شلاخ البرمائي)، و(العصفورية)، و(سبعة)، و(سعادة السفير)، و(الجنيّة)، و(العودة سائحاً إلى كالفرونيا)، و(هما) و(حكاية حب)، و(رجل جاء وذهب) آخر أعماله كانت (أقصوصة الزهايمر) التي نشرت بعد وفاته. أما في الشعر فلديه دواوين (معركة بلا راية)، و(أشعار من جزائر اللؤلؤ)، و(للشهداء)، و(حديقة الغروب). وله إسهامات صحافية متنوعة أشهرها سلسلة مقالات في عين العاصفة، التي نُشرَت في جريدة الشرق الأوسط إبان حرب الخليج الثانية، التي نشرت مؤخراً في كتاب. كما أن له مؤلفات أخرى في التنمية والسياسة وغيرها منها: (حياة في الإدارة)، و(التنمية)، و(الأسئلة الكبرى) و(عن هذا وذاك)، و(باي باي لندن) ومقالات أخرى (الأسطورة ديانا)، و(100 من أقوالي غير المأثورة)، و(ثورة في السنة النبوية)، و(حتى لا تكون فتنة).

ذكره معلمه والأديب الراحل عبد الله بن محمد الطائي ضمن الشعراء المجددين في كتابه (دراسات عن الخليج العربي) قائلاً:

«أخط اسم غازي القصيبي، وأشعر أن قلبي يقول ها أنت أمام مدخل مدينة المجددين، وأطلقت عليه عندما أصدر ديوانه أشعار من جزائر اللؤلؤ الدم الجديد، وكان فعلاً دماً جديداً سمعناه يهتف بالشعر في الستينيات، ولم يقف، بل سار مصعداً، يجدد في أسلوب شعره، وألفاظه ومواضيعه».

يعد كتاب حياة في الإدارة أشهر ما نشر له، وتناول سيرته الوظيفية وتجربته الإدارية حتى تعيينه سفيراً في لندن. وقد وصل عدد مؤلفاته إلى أكثر من ستين مؤلفاً. له أشعار لطيفة ومتنوعة ورواية سلمى، وترجم كتاباً للمؤلف ايريك هوفر باسم المؤمن الصادق.

كان لغازي ميول أدبية جادة، ترجمها عبر دواوين أشعار كثيرة، وروايات أكثر، وربما يعدّ بسببها أحد أشهر الأدباء في السعودية، ويظل رمزاً أو نموذجاً جيداً لدى الشباب منهم، وكالعادة، فالمبدعون لابد أن تحاصرهم نظرات الشك، وتلقى إليهم تهم لها أول لكنها بلا آخر، لا سيما وأن متذوقي الأدب قلة، ومحبي حديث الوعاظ المتحمّسين غالبية، وابتدأت تلك المشاحنات من جانب بعض الوعاظ مع إصداره لديوانه الشعري الثالث (معركة بلا راية) عام 1970، إذ ساروا في وفود وعلى مدى أسابيع عدة، نحو الملك فيصل لمطالبته بمنع الديوان من التداول، وتأديب الشاعر. فأحال الملك فيصل، الديوان، لمستشاريه ليطلعوا عليه ويأتوه بالنتيجة، فكان أن رأى المستشارون أنه ديوان شعر عادي لا يختلف عن أي ديوان شعر عربي آخر، إلا أن الضجة لم تتوقف حول الديوان واستمرت الوفود بالتقادم للملك فيصل، فما كان منه سوى أن شكل لجنة ضمت وزير العدل ووزير المعارف ووزير الحج والأوقاف، لدراسة الديوان أو محاكمته بالأصح، وانتهت اللجنة إلى أن ليس في الديوان ما يمس الدين أو الخلق، ولا تمر هذه الحادثة في ذهن القصيبي إلا ويتذكر موقف الملك عبد الله بن عبد العزيز من هذه القضية، إذ يقول غازي: «سمعت من أحد المقربين إليه أنه اتخذ خلال الأزمة موقفاً نبيلاً وحث الملك فيصل على عدم الاستجابة إلى مطالب الغاضبين المتشنجة».

فيما بعد توالت الإصدارات بين دواوين الشعر والروايات والكتب الفكرية، ومن دواوينه الشعرية : (صوت من الخليج)، الأشج، (اللون عن الأوراد)، (أشعار من جزائر اللؤلؤ)،(سحيم)، و(للشهداء). ومن رواياته (شقة الحرية)، (العصفورية)، (سبعة)،(هما)،(سعادة السفير)،(دنسكو)، (سلمى)، (أبو شلاخ البرمائي)، وآخر إصداراته في الرواية: (الجنية). وفي المجال الفكري له من المؤلفات :(التنمية)، (الأسئلة الكبرى)، (الغزو الثقافي)،(أمريكا والسعودية)، (ثورة في السنة النبوية)،

والكتاب الذي وثق فيه سيرته الإدارية والذي حقق مبيعات عالية :(حياة في الإدارة) وكذلك كتاب (الوزير المرافق) الذي وثق فيه سيرته كمسؤول في وزارة من خلال بعثات الوفود الرسمية ومرافقته للضيوف الرسميين .

وأحدثت معظم مؤلفات الشاعر والروائي والمفكر غازي القصيبي ضجة كبرى حال طبعها، وكثير منها مُنع من التداول في السعودية لا سيما الروايات، ثم فسحت لتداولها.

وعلى المستوى الروائي يكاد يُجمع المهتمين بأن روايتي (شقة الحرية) و(العصفورية)، هما أهم وأفضل وأشهر ما كتب القصيبي، في حين احتفظ ديوان معركة بلا راية بمرتبته المتقدمة بين دواوين الشعر الأخرى، وفي المؤلفات الأخرى، يبقى (حياة في الإدارة) واحداً من الكتب التي حققت انتشاراً كبيراً على الرغم من أن ثقافة القراءة كانت شبه معدومة حينها في المجتمع؛ حيث نشر الكتاب عام 1998.

وفي الشأن الأدبي، لا تخلو سيرة غازي الوزير من مواقف طريفة تسبب بها غازي الأديب، إذ يروي القصيبي أنه في أحد الأيام إبان وزارته في الكهرباء والصناعة حصل انقطاع للكهرباء في أحد أحياء الرياض، وكان القصيبي يذهب إلى مقر الشركة ويتلقى الشكاوى الهاتفية مع موظفي السنترال كلما حدث انقطاع، فلما كان ذاك اليوم، وفي أثناء تلقيه للاتصالات على سنترال الشركة، حادثه مواطن غاضب قائلاً: «قل لوزيركم الشاعر أنه لو ترك شعره واهتم بعمله لما انقطعت الكهرباء عن الرياض»، يقول غازي، «فقلت له ببساطة: شكراً.. وصلت الرسالة! فقال: ماذا تعني؟ قلت: أنا الوزير ! قال: أحلف بالله! فقلت: والله. وكانت هناك لحظة صمت في الجانب الآخر قبل أن تهوي السماعة».

ودارت نزاعات فكرية ثقافية بين غازي ومجموعة من الصحويين في أواسط التسعينيات، حولها الصحويون من اختلافات إلى خلافات، ووصلوا فيها إلى مراحل متقدمة من الطعن في غازي عبر المنشورات والمنابر وأشرطة الكاسيت، فأصدر غازي حينها كتابا بعنوان (حتى لا تكون فتنة) وهو بمثابة الرسالة، يوجهها نحو من جعلوا أنفسهم خصوماً له، وانتهت تلك المرحلة بسلام.

وعلى الرغم من أن البعض يرى أدب غازي متطرفاً نحو اليسار، إلا أن لآخرين رأيهم بأنه متطرفاً لليمين، لا سيما في أدبياته الأخيرة، وخصوصاً (قصيدة الشهداء) التي مجّد فيها غازي للعمليات الانتحارية في فلسطين، وأشاع بعضهم حينها أنها كانت سبباً لتدهور علاقاته الدبلوماسية في بريطانيا، فكان أن نقل من السفارة عائداً إلى الوزارة، وذلك بعد نحو عام من نشر القصيدة.

وهنا يستشهد القصيبي بقول الأديب السوري محمد الماغوط: «ما من موهبة تمر دون عقاب»، ويضيف عليها: «وما من موقف يمر بلا ثمن»!

توفي عن عمر يناهز السبعين عامًا في يوم الأحد 5 رمضان 1431 هـ الموافق 15 أغسطس 2010 الساعة العاشرة صباحاً في مستشفى الملك فيصل التخصصي بالرياض بعد معاناة طويلة مع المرض.

وعندما بلغ الشاعر غازي القصيبي 65 عاماً كتب هذه القصيدة (حديقة الغروب) التي نُشرت في 22 أيار/مايو 2005:

خمسٌ وستُّونَ.. في أجفان إعصارِ — أما سئمتَ ارتحالاً أيّها الساري؟
أما مللتَ من الأسفارِ.. ما هدأت — إلا وألقتك في وعثاءِ أسفارِ؟
أما تَعبتَ من الأعداءِ.. مَا برحوا — يحاورونكَ بالكبريتِ والنارِ
والصحبُ؟ أين رفاقُ العمرِ؟هل بقيَتْ — سوى ثُمالةِ أيام.. وتذكارِ
بلى! اكتفيتُ.. وأضناني السرى! وشكا — قلبي العناءَ!... ولكن تلك أقداري
أيا رفيقةَ دربي! لو.. لديّ سوى — عمري.. لقلتُ: فدى عينَيْكِ أعماري
أحببتني.. وشبابي في فتوّته — وما تغيّرتِ.. والأوجاعُ سُمّاري
منحتني من كنوز الحُبّ. أنفَسها — وكنتُ لولا نداكِ الجائعَ العاري
ماذا أقولُ؟ وددتُ البحرَ قافيتي — والغيم محبرتي.. والأفقَ أشعاري
إنْ سألوكِ فقولي: كان يعشقني — بكلّ ما فيه من عُنفٍ.. وإصرار
وكان يأوي إلى قلبي.. ويسكنه — وكان يحمل في أضلاعه داري
وإنْ مضيتُ.. فقولي: لم يكن بَطَلاً — لكنه لم يقبّل جبهةَ العارِ
وأنتِ!.. يا بنت فجري تنفّسه — ما في الأنوثة.. من سحر وأسرارِ
ماذا تريدين مني؟! إنّني شبَحٌ — يهيمُ ما بين أغلالٍ. وأسوارِ
هذي حديقة عمري في الغروب.. كما — رأيتِ... مرعى خريفٍ جائعٍ ضارِ
الطيرُ هَاجَرَ.. والأغصانُ شاحبةٌ — والوردُ أطرقَ يبكي عهدَ آذارِ
لا تتبعيني! دعيني!.. واقرئي كتبي — فبين أوراقها تلقاكِ أخباري
وإنْ مضيتُ.. فقولي: لم يكن بطلاً — وكان يمزجُ أطواراً بأطوارِ
ويا بلاداً نذرت العمر.. زَهرتَه — لعزّها!... دُمتِ!... إني حان إبحاري
تركتُ بين رمال البيد أغنيتي — وعند شاطئكِ المسحورِ. أسماري
إن سألوك فقولي: لم أبعْ قلمي — ولم أدنّس بسوق الزيف أفكاري
وإن مضيتُ.. فقولي: لم يكن بَطَلاً — وكان طفلي.. ومحبوبي.. وقيثاري
يا عالم الغيبِ! ذنبي أنتَ تعرفُه — وأنت تعلمُ إعلاني.. وإسراري
وأنتَ أدرى بإيمانٍ مننتَ به — علي.. ما خدشته كل أوزاري
أحببتُ لقياكَ.. حسنٌ الظن يشفع لي — أيرتُجَى العفو إلاّ عند غفّارِ؟

بعد خمس سنوات، كتب قصيدته الجديدة (سيدتي السبعون) في 7 آذار/مارس 2010، وقد بلغ السبعين من عمره:

ماذا تريدُ من السبعينَ.. يا رجلُ؟! — لا أنتَ أنتَ.. ولا أيامك الأُوَلُ
جاءتك حاسرةَ الأنياب.. كالحَةً — كأنّما هي وجهٌ سَلَّه الأجلُ
آوّاه! سيدتي السبعونَ! معذرةً — إذا التقينا ولم يعصفْ بيَ الجَذَلُ
قد كنتُ أحسبُ أنَّ الدربَ منقطعٌ — وأنَّني قبلَ لقيانا سأرتحلُ
آوّاه! سيدتي السبعونَ! معذرةً — بأيِّ شيءٍ من الأشياء نحتفلُ؟!
أبالشباب الذي شابتْ حدائقُهُ؟ — أم بالأماني التي باليأس تشتعلُ؟
أم بالحياة التي ولَّتْ نضارتُها؟ — أم بالعزيمة أصمت قلبَها العلَلُ؟
أم بالرفاق الأحباء الأُلى ذهبوا — وخلَّفوني لعيش أنسُه مَلَلُ؟
تباركَ اللهُ! قد شاءتْ إرادتُه — ليَ البقاءَ.. فهذا العبدُ ممتثلُ!
واللهُ يعلمُ ما يلقى.. وفي يدِه — أودعتُ نفسي.. وفيه وحدَه الأملُ

كتب غازي القصيبي هذين البيتين:

أغالب الليل الحزين الطويل
أغالب الداء المقيم الوبيل
أغالب الآلام مهما طغت
بحسبي الله ونعم الوكيل